الانزياح في اللوحة التشكيلية الجزائرية بين الحرية و الإلتزام

بن عزة أحمد و الأستاذ .د: خالدي مُحَمَّد

قسم الفنون – جامعة أبي بكر بلقايد _ تلمسان

ملخص:

نجد اليوم صعوبة كبيرة في إيجاد إطار مكاني أو زماني محدد يمكن من خلاله ضبط التوجهات المعاصرة في الفن التشكيلي، و الجزائر جزء من هذا الإطار، تشكّلت فيه لوحات فنية نقيس من خلالها مستوى الوعي للمتلقي، و الإبداع عند الفنان، و قد ظهرت بوادر فردية مشجّعة في تغيير الأساليب و من استعمال تقنيات و خامات معاصرة، خرجت عما هو مُعتاد و مألوف، احدث الفنان من خلالها انزياح في تكوين اللوحة، وهو طرح غير مسبوق من حيث الدراسة و حديث النشأة على الساحة، ينضوي تحت ما يسمى بالانزياح في الفن التشكيلي الجزائري، وهو أمر من شانه أن يجعل موضوع التراث الفني ما نحقق به من تجارب جمالية ممتعة، و صياغته بأنماط و رؤى معاصرة، من جهة تخليدا لمنجزات الفنانين التشكيلين الجزائريين، ومن جهة أخرى تشجيعا لجيل الفن المعاصر، في سبيل نفي الزعم القائل أنه هناك قطيعة بين الجيلين و بين التراث والمعاصرة، و معرفة العصف الذي يحدثه الفنان داخل اللوحة.

الكلمات المفتاحية : الانزياح , اللوحة التشكيلية , الحرية , الإبداع

Abstract

Today, we find great difficulty in finding a specific spatial or temporal Framework through which contemporary trends can be controlled in plastic art, Algeria is part of this framework, formed paintings in which we measure the level of awareness of the recipient and the creativity of the artist, In the change of methods and the use of contemporary techniques and materials, came out of what is usual and familiar, the artist through which the Displacement in the composition of the painting, an unprecedented exposure in terms of study and the emergence of the emergence on the scene, under the so-called displacement in Algerian plastic art, Which would make the subject of artistic heritage what we are doing from the traders Aesthetic fun, and drafting styles and visions of contemporary, on the one hand to commemorate the achievements of the fine artists Algerians, on the other hand to encourage the generation of contemporary art, in order to deny the claim that there is a rupture between the two generations and between the heritage and contemporary, and knowledge of brainstorming wrought by the artist inside the painting.

Keywords : displacement - plastic painting - freedom - commitment

مقدمــة

صارت الحاجة ماسة إلى كتابات وبحوث، في مجال الفن التشكيلي الجزائري والبحث عن كل ما هو جديد وآليات التطبيق من السعة والشمول، وفق منظومة إبداعية في مفهوم الانزياح على وجه الخصوص أمر محتوم، لمواكبة تطور الفن والإلمام به من كل الجوانب، وإثراء للساحة العلمية والفنية، بوجهات نظر مختلفة ومن زوايا متعددة، واستغلال كل العناصر التشكيلية في تراكيب فنية مختلفة، وقد ظهر ذلك مع ظاهرة علم الجمال، الذي يركز على القضايا الأسلوبية والتقنية والشكلية ممثلا بقول هيغل و نيتشه و غيرهم مفاده أن الفنان لا يحابي الواقع، و أنّ مهمة الفن تتجاوز ما هو تقليدي ومتفق عليه، أو مع العالم الخارجي الذي فرض نفسه بحكم قوة أسلوبه.

أبواب المعرفة في العلوم والفنون والآداب لا حدود فاصلة بينها، كما يقول عبد الفتاح رياض بل تتداخل كل منها في الأخرى، ومن ثم نجد أن هذا البحث يربط بين ممارسة الفن، وفلسفة الجمال، وسيكولوجية الإنسان بصفة عامة للتعرف على رغباته وغرائزه التي تثير فيه الاستمتاع بالجمال، وسيكولوجية الإدراك البصري بصفة خاصة، وهذا يعني أن هذا الموضوع جديد ومتجدّد في معالجة النهج الدراسي التطبيقي، وهو في نفس الوقت، يحث الفنان على الجرأة و أخذ زمام المبادرة، لإحياء التراث بحُلّة عصريةٍ و إثراء الإنتاج الفني الجزائري.

مشكلة الدراسة

تدلّ كافة المؤشرات اليوم إلى تزايد الاهتمام بتطور الفن نظرا لارتباطه بالمجتمع و مختلف العلوم، مما تدعونا لخوض غمار تجربة ثقافة فنية جديدة، و الوقوف على طرح إشكالية ما معنى الانزياح في الفن التشكيلي الذي تتجدّد فيه اللوحات الفنية، وتنبَهر فيه عيون المتلقي متفاجئة بأوصاف كثيرة دون فقدان هوية و أصالة المجتمع؟.

مفهوم الانزياح

ارتبط مصطلح الانزياح باللغة الشعرية قديما، ويقترن حديثا بالأساليب اللغوية، التي تشكلت منها اللسانيات، والذي يمكن من خلاله التعرف على طبيعة الأسلوب، كما تتسع دائرة مفهومه في الكيفية التي يتم تناوله بها سواء في الأدب أو الفن، فالانزياح هو مظهر عام لا يخص الأسلوب فحسب، ففي مجال الفن التشكيلي يهم ذاك الخرق للتركيب الفني وإعادة بناءه على مستوى أعلى، و كذلك كانت فنون الحداثة الأوروبية التي خرقت الفنون التقليدية، لتعيد صياغتها في بناء مغاير، عن السائد أو المتعارف عليه، و لابد من معيار أو قاعدة يتم الانزياح عنها و خرقها.

الانزياح عند العرب القدماء هو ما اصطلحوا عليه بالعدول والاتّساع والتجاوز والمبالغة وغير ذلك([1]) ، فحينما يصل الأديب بالنظام اللغوي إلى أبعاد جمالية وفنية يكون قد استطاع العدول عن المألوف، حتى يصل بالمعنى المراد التعبير عنه بشرح عريض المعنى قصير المبنى، إلى أبعد نقطة من الإبداع ليتشكل بذلك انزياحا.

وينكشف اهتمام سيبويه بالانزياح اللغوي من خلال مؤلفه المعنون بـ " الكتاب" وقد عقد بابا مفصلا سمّاه "باب لفظ المعاني" في سياق الحديث عن الانزياح اللغوي([2]) ، والجاحظ في البيان والتبيين[(3)]،كما ذهب إليه الدكتور عبد الملك مرتاض في تقديم مصطلح "العدول"، على مصطلح "الانزياح" بحجة حضور الأول "العدول" في التراث العربي، وغياب الثاني في المصطلح التراثي، ومن ضمن الداعين لمصطلح العدول الدكتور التهامي الراجي الهاشمي في"معجم الدلائلية ، وقد وظفه في سياق مبحث من مباحث فقه اللغة " المشترك اللفظي"([4])، كما انتصر الدكتور سعيد بوطاجين لمصطلح العدول، يقول: "لماذا مصطلح انزياح؟...لا نجد أيّ تسويق لهذا المقترح، ليس لأنهّ مستثقل صوتيا، بل لأنّ المفهوم ومصطلحه قائم منذ قرون، لذلك نرى أنّ مصطلح عدول أجمل وأدل، وأكثر اقتصادا من ناحية الحروف التي تشكله "[(5)].

أما جانكوهين فهو أول من خصّ هذا المصطلح بحديث مستفيض في مجال حديثه عن لغة الشعر، فقد قامت نظرية الانزياح لديه على مجموعة من الثنائيات ضمن إستراتيجية الشعرية البنيوية في كتابه" بنية اللغة الشعرية"، الذي ظهر عام 1966م، ويرى جانكوهين " :أن الشعر انزياح عن معيار، قانون اللغة، فكل صورة تخرق قاعدة من قواعد اللغة أو مبدأ من مبادئها هو انزياح، أما ريفاتير عالم الأسلوبيات، فقد حصر مفهوم الانزياح من خلال تحديده للظاهرة الأسلوبية حيث عرّفه بقوله ":يدقق مفهوم الانزياح بأنه يكون خرقاً للقواعد حيناً، ولجوءً إلى ما ندر من الصيغ حيناً آخر[6]".

أما قاموس جونديبوا فيشير إلى أن الانزياح:"حدث أسلوبي ذو قيمة جمالية، يصدر عن قرار الذات المتكلمة بفعل كلامي يبدو خارقًا لإحدى قواعد الاستعمال التي تسمى معيارًا أي يتحدد بالاستعمال العام للغة، المشتركة بين مجموع المتخاطبين بها، واتخذ سبيتزر من الانزياح مقياسًا رزيناً لتحديد السمة الأسلوبية المميزة التي تدلّ على العبقرية الفردية للكاتب[7]" .

1. الانزياح في المصطلح

ويجمل د/ بوحلاسة نوار[8]ما تقدم فيقول :الانزياح هو استعمال المبدع للغة من (مفردات—صور—تراكيب)، استعمالا يخرج بها عما هو معتاد ومألوف بحيث يؤدي المبدع من خلالها ما ينبغي أن يتصف به من تفرد وإبداع وقوة جذب وأسر، أو هو مجموعة من المبادئ والقيم الجمالية، التي يسعى بها المبدع لإكساب هذا الخطاب التميز والبعد عن الأنماط المعيارية في النصوص الأخرى.

لقد قدّم الباحث أحمد محمّد ويس[9] " إلى أن"الانزياح، هو أحسن ترجمة للمصطلح الفرنسي، (Ecart)، و بالإنجليزية Displacement، وفي محاولة لتعقب امتداد المصطلح يلخّص عبد السلام المسدي تلك المصطلحات واضعا لكل مصطلح عربي أصله الفرنسي وصاحبه على النحو التالي[10]:

المصطلح العربي	المصطلح الفرنسي	صاحبه
الإنزياح والتجاوز	L'écart et l'abus	فالبري
الانحراف	La déviation	سبيتزر
الاختلال	La distorsion	وبلك و باربن
الإطاحة	La subversion	بانيار
المخالفة	L'infraction	نيري
الشناعة	Le scandale	بارت
الانتهاك	Le viol	كوهن
خرق السنن واللحن	La violation des normes Et L'incorrection	تودورف
العصيان	La transgression	آراجون
التحريف	L'altération	جماعة مو[1]

1 الأسلوبية والأسلوب، مرجع سبق ص 100-101

2. وظيفة الانزياح

للانزياح وظيفة جمالية تمكن الأديب والشاعر من فتح آفاق واسعة للتفاعل والتواصل، ولولا الانزياح لما تطور الأدب في الشعر والنثر، ولظل الأدب جامداً ومتكلساً، فهو يهدف إلى لفت الانتباه ومفاجأة القارئ أو السامع بشيء جديد، والحرص على عدم تسرب الملل إليه، مع إعطاء البعد الجمالي للأدب، والذي لا يتحقق إلا عن طريق الانزياح.

كما في الأدب فإن الانزياح في الفن التشكيلي، والذي يكون في المتلقي وعبر الفن المعاصر على وجه الخصوص أصبح المتلقي هو محور الصناعة الفنية فإن الانزياح يخدم في المقام الأول العمل و متلقي العمل الفني، ونحن نعلم أن ما للوحة من تأثير بقدر ذلك الانبهار والمفاجئة التي تحدث عند الجمهور، و "لا حرج أن نسارع إلى القول أن وظيفة الانزياح الرئيسية هي المفاجأة [11]" و التي هي في حقيقة الأمر مرتبطة بالمتلقي الذي يدخل دائرة الإبداع دون استئذان، و لم يكن له في العصور السابقة أي اعتبار، لأنه اليوم هو من يوجه له الفنان العمل الفني، واضعا المتلقي كشريك إلى جانبه، و إنّ وظيفة الانزياح في الفن التشكيلي هي خدمة النص البصري ومتلقيه، إذ يُعدّ محور تجربة الفنان في تشكيل المعنى و توضيح دلالته و لا يكتمل النص إلا بالمتلقي، " ..في مجال الفن و في القرن العشرين فقد اشتمل على عوالم الإنسان الداخلية و الخارجية معا، بهدف إحداث تغيرات في طبيعة الذوق العام لكونه نتاجا تراكميا (خبريا معرفيا)، خصوصا بعد ظهور الاتجاه الانطباعي[12]، في ميدان الفن و الأدب و ما تلاه من حركات[13]".

في عصر ما بعد الحداثة، أصبح من الضروري، لكي يحقق المبدع في الفن التشكيلي إنزياح دلالي، لا بد أن يتخطى الدلالة السطحية للمعاني و الرموز و أصبحت المفاجأة هي عنوان الفن التشكيلي، خصوصا بعد الثورة التي أحدثتها المدارس الفنية الحديثة، "ثورة مزقت كل القواعد والأسس والقيم المقدسة و أحالت الأيقونات إلى أدوات ثانوية بل جعلتها انقلاب في الذائقية المتداولة، ...مفعمة بشكلية متفردة ، فن يتعامل تعاملا تحليليا تركيبيا يحلل معطياتها الميثوسيسيولوجية ليعيد تركيبها على وفق نظامها الجمالي المستحدث[14]"

ما هو مقياس (معيار) حدوث الانزياح؟

إن اللغة الإنسانية التي تفرد بها الإنسان على سائر المخلوقات كلها إنزياحات، إلا أن الانزياح درجات ومراتب، ولكن يبلغ الانزياح قمته حين يصل المبدع كان من كان إلى درجة من الغموض المكثف الممتع في نفسية المتلقي، كالشاعر في قصائده مثلا عند المتصوفة أو الفنان في لوحاته الفنية السريالية والتجريدية، وكلما نزلت لغة الإنسان الفنية التعبيرية إلى اللغة العادية البسيطة، قلّ الانزياح وأندثر أو غاب بشكل نهائي.

يمكن القول أنّ اللغة العادية هي لغة معيارية Standard Langage، إنّها الدرجة الصفر في الكتابة اللغوية، فلو شبهنا اللغة المعيارية والكتابة بها بدرجة الصفر، وشبهنا اللوحة التشكيلية في قمة الإبداع باللغة المجازية وأعطيناها قمة مائة درجة، نقول إنّ الانزياح يحدث بين الدرجة 0 والدرجة 100، أو مثلا حين يقول قائل: "تَحَدَّثنا" أو "تَكَلَّمنَا"،فهذا كلام عادي، لا يسمى أدبًا، ولكن حين نقول مثلا: أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا"، أو" تجاذبنا في الحديث أفكار سوداوية" بمعنى غلبت علينا أفكار تشاؤمية فَهَذا أَدَب، لأنَّه خَرَج على التَّعبير المِعْياري العادي، و مثال آخر: (دخل الأستاذ)، لغة هذه الجملة تعد معيارية لأنها لم تتضمن أيّ انزياح من أيّ نوع، سواء على المستوى الصوتي أو الصرفي أو النحوي أو البلاغي أو الخطي أو الدلالي، لكنك حين تقول (رأيت أسدًا يدخل القسم)،أو (ملاكاً يدخل الفصل الدراسي) فأنت تقصد أستاذ أو أستاذة على التوالي، و تكون قد حققت انزياحا بدرجة مثلا 60 في %، أي أنّك خرجت بالتركيب من اللغة المباشرة (اللغة المعيارية) إلى اللغة غير المباشرة أي إلى لغة المجاز والتشبيه و الاستعارة.. الخ، فالتشبيه يكون مظهرا من مظاهر الانزياح، والاستعارة مظهر من مظاهر الانزياح، المجاز مظهر من مظاهر الانزياح، وهكذا...الخ، إذن نحن عندنا إنزياحات وليس انزياح واحد، لكن على درجات متفاوتة.

ولكن –مَعَ مرور الزَّمَن –أصبحت مثل هذه الصور منَ المألوف المتَدَاوَل، مما أفقدها الإدهاش والإغراب، وبالتَّالي القدرة على الإثارة والإيحاء، و بالتالي فالانزياح ليس له معيار ثابت، وهو خَاضع للتَّطَوُّر اللغوي، وللسِّياق الاجتماعي، فماذا عن اللوحات والإنتاج الفني الذي لا يحمل انزياحا؟.

الانزياح في الفن التشكيلي الأوروبي

إن مصطلح الانزياح يستخدم على نطاق واسع اليوم في عدة دراسات ومجالات وميادين، وقد لقي نصيبه في الفن التشكيلي، الحظ الأوفر، قبولا ورضا من الفنانين والنقاد، حينما اتّسعت محاولات تمثيل هذا المدلول في عدة لوحات، وثورة المدارس الفنية على الواقع، وكردة فعل على بعضها البعض، خاصة حينما أصبح ينشئ الفنان شيئاً ما، حتى لو كان مستوحى من الفن الحديث فأنه لا يتقيد بحدوده، بل يتعدّى تصويره بأكثر الطرق استثنائية.

يرى المؤرخ ليونيلي فانتوري venturi " أن المحور الأساسي للفن هو تحقيق الجمال في أبسط أشكاله، ولكن ليس في صورته المألوفة المتغيرة بتغير العصور إنما هي أثر فوق الزمن، فهو غير مطالب بأن يوحي إلينا الأفكار المتشابهة أو العواطف المتجانسة، وليس من المعقول أن نلتمس في الفن مثل هذا الجمود[15]' فكل مدرسة فنية محدثة أحدثت انزياحا في عصر ظهورها، و خرقا واضحا للفنون التقليدية والكلاسيكية، والفنانين أصرّوا على التغيير و مغادرتهم للسكون الذي وجدوا أنفسهم فيه من أجل تغيير إبداعي وانفصال عن الماضي.

إن أول أنواع الثورة والتجديد، قائم حول تلك النقلة والانزياح في الأعمال الفنية الذي يأتي عصرا بعد عصر، كلما دعت الضرورة و الإبداع لبروز حركة جديدة تحاول الخروج على القواعد والقيود التي فرضها الأسلوب الفني السائد، ويعد سيزان رائد الفن الحديث حيث أخذ يبحث لنفسه عن أسلوب جديد تاركاً الاهتمام بالذبذبات الضوئية وتغييراتها، وحتى لا يقع في أسر الطبيعة لجأ إلى التكوينات الهندسية بالتحوير في رسومه، بدأ في تحويل المنظر إلى بناء متين قائم على علاقات هندسية،" فكان يقسم مساحة الشكل الذي يصوره على اللوحة إلى مربعات ثم يملأ هذه المربعات بخطوط عريضة طويلة كثيفة اللون مما يوحي للمشاهد بالإحساس بالكتلة وهو ما يهدف عنصر التظليل إلى الإيحاء به في التصوير التقليدي فصور الوجوه والأجسام على هيئة اسطوانات ومخروطات ومكعبات ومثلثات[16]"، و بذلك أرسى قواعد المدرسة التكعيبية.

ما دمّره الفنانين في أعمال بفرشاتهم التي بقيت شاهدة بكل مراحلها على القواعد المعهودة، هي إنزياحات متباينة رفضت الطرز الفنية المعتادة لأجل ولادة طرز فنية مغايرة وجديدة في التقنية و الخامة، " فكانت النقلة الكبرى عام 1911 حين انتهى (موندريان) من صنع ثلاثة صور لشجرة كل صورة منها أكثر تجريدا من التي قبلها حتى وصوله إلى رسم مربعات عمودية وأفقية و بذلك فتح مجالا للمدرسة التجريدية[17] "،كذلك هو الحال مع المدرسة الوحشية التي استطاعت أن تحطم بوعي كل الأنساق السائدة والمتداولة، "و هو ما تطلب إنزياحا معرفيا جماليا كان من نتاجه أن أنكر الوحوشيون القواعد الفنية السابقة واضعين في اعتبارهم الحس المجرد و الشعرية المنبثقة من آفاق وجدانية لتكشف عن الخط الإيقاعي و الجمالية الزخرفية بتناغم الألوان [18]"،و هكذا كانت بداية كل مدرسة فنية تزيح المدرسة، التي سبقتها بإحداث تغيير و خلخلة في النظم، تعكس بعض التطور الحاصل في الفن

سعياً وراء التجديد والاكتمال مُعلنةً عن انفعالات الفكر و متحولات المعرفة وبداية عصر جديد، عندما صار للفن حرية التنوع في وهكذا توالت الحركات الفنية الانطباعية والتكعيبية والمستقبلية وغيرها.

جاء عصر القرن الحادي والعشرون من خلال معطيات أفرزت عِدّة تَحَوّلات في المفاهيم، فما كان حديثاً في السنة الماضية لا يكون حديثاً في هذه السنة، وما كان من السهل معرفة أسلوبه و مدرسته كعمل فني و إبداعي، أصبح من الصعب تصنيفه لأي من الاتجاهات و المدارس الفنية ينتمي هُوَ ، بل بات من الإشكال المعرفي كيفية قراءة المنجز الفني في ظل فن منفلت متحرر، طفت عليه الذاتية في اتجاهات مختلفة و نظريات فنية جديدة ، وقطع الفنان صلته بجميع العقائد، يرفض القوانين والقيم الثابتة والأساليب التقليدية، ويطمح دائماً للتنوع والإتيان بكل ما هو جديد وغريب، مثلما استخدمهMarcel Duchamp،مارسيل دوشامب في أفكاره أن الفن هو كل ما يقول عليه الفنان إنه فن، إنه المولود الجديد الفن المعاصر.

الانزياح في الفن التشكيلي الجزائري

لقد عبّرت الفنون التشكيلية، بقدر الفنون الأخرى، وربما بصورة أفضل منها، وبإخلاص بليغ، عن ولادة حضارات، وساهمت تلك الرسومات والمنحوتات والنقوش على الحجر التي تعود إلى ما قبل التاريخ، في توضيح أن رَجل الكهف، لم يكن يعلم أنّ فعله هذا يُعدّ فنًا، بل حاجة مُلحّة كحاجته للطعام والشراب، جعلت من مآثره الكبرى و في عزّ إيمانه الروحي و المادي بثرواته و ثوراته بمآسيه وهزليّاته، مثل حَبْل السُرّة الذي يصل امتداده من الحضارات القديمة إلى الفنون الحديثة، تحكي ريشته قصصا تجعلنا نختبر ما مرّ به، بولادة قيصرية تحت وطأة القطيعة أو نفي البعض للآخر كنفي الفنان للفنان حينما كانت تتعاقب المدارس الفنية في الظهور، يقول تولستوي" إن الفن الذي يستهلك جهودا جبّارة من قبل الناس و حياة البشر، و يهدم الحب من بين البشر، ليس شيئا واضحا و محددا تحديدا دقيقا، خاصة الفن الجيد والمفيد الذي من أجله يمكن تقديم تلك الضحايا"[19]، لأن محاولة الوقوف على معرفة الفن، هو خطأ في حد ذاته لأنّ الفن في الأصل تحكمه النسبية وتعدد الآراء والأذواق والمفاهيم.

هذا يقودنا للحديث عن مجموعة من الفنانين تُسَافِر معهم في رحلة عبر التراث بطعم الصبر، اللذين أعطوا انطباعاً مفاده أن شتى العلاقات المعرفية للفن من تعلم و موهبة و تلقين، و التوفيق بينهم هي محاولة صعبة المنال، لكنّها مُمْكِنة، حينما يكون صاحبها يَعِي حدود التقليد والتأثر بالغير، ويكتسب موهبة التجديد والتحديث، وقدرة استنطاق التراث المحلي، مستلهما ماضي حضارة بلده المتنوع ثقافيا، وأساليب وتقنيات ومنطلقات مَنْ سَبَقَهُ من كِبار التشكيلين في العالم.

نذكر من بين هؤلاء و خلافا لفن المنمنمات ذلك النوع من الرسم المعروف بأبعاده المصغرة : الفنان الهاشمي عامر[20]، وان ظلّ وفِيا للمبادئ الأساسية لفن المنمنمات، إلا أنّ الفنان ادخل "تقنية جديدة" واضعا في طريقته لإبداع تلك المنمنمات التي تتميز كلها بالطابع المعاصر، و بالتعمق في تلك اللوحات التي تم انجاز اغلبها بين سنوات 1990 و2000، يبرز ذلك البعد المعاصر للأعمال وتحظى بالاستحسان لأنها تخلوا من أي "اعتداء" أو "تشويه" لفن المنمنمات، حتى وان أعطت بعض اللوحات الانطباع بأنها غير مكتملة، و أخرى تظهر أنها مجزأة أو مقسمة إلى اثنين.

لوحات فنية لهاشمي عمار توضح كيف إستطاع أن يغيرمجرى فن المنمنمات المعروف بالزياح و بصمة لم يسبق لها مثيل

بحكم ما نعرفه في الفنون الجميلة هو أن المنمنمات تتطلب الكثير من الوقت ومن التركيز الدقيق في التفاصيل، فما أن تشاهد أعماله، حتى يحضر اسم الفنان الكبير الراحل ''مُحَّد راسم''، والذي يعتبر مرجعية في عالم المنمنمات بالجزائر،ناهيك عن توظيف الزخرفة الإسلامية وما تتطلبه من دقة في الأعمال،إلا أن الفنان هاشمي عامر الذي تأثر بالمدارس الصينية المعروفة أيضًا بمنمنماتها الخلابة وبتقنياتها في عالم المنمنمات، عرف كيف يوظّفها في أعماله، ما جعله غزير الإنتاج،ثم عَمَدَ إلى الإطاحة بكل النُظُم و قواعد الزخرفة لشكل المنمنمات التقليدي الذي اعتدنا رؤيته أو عمله، سواء في عناصر اللوحة نفسها (منها الزخرفة بشكل عام والوحدات الزخرفية ثم المنمنمة ثم التركيب ككل)، و تأثره بالمدارس الفنية وبعالم الجرافيك نفسه، إلا أنه حافظ على الأصالة في نفس الوقت، و تدرك مفهوم الانزياح مجسدا ميدانيا في لوحاته الرائعة.

أما الفنان الجزائري عزيز عياشين([21])فاللوحة عنده عبارة عن مخبر مفتوح، يتردد عليه لبناء ما يراه يعكس بصدق بتراثه وجماليات ميراثه التشكيلي، الفكري والفلسفي، هي إذن أسماك، أو تماسيح، وديوك وفراشات، تلعب داخل اللوحة، فوضع الحيوان في قلب اللوحة وزرع حروف ورموز فيه/ عليه، بشكل يجعلنا نتماهى معه، وننسى أحكامنا

المسبقة عنه، و يفرضه الانطباع الناتج عن مشاهدتها للوهلة الأولى، فيستعمل تارة الأكريليك و تارة أخرى عجينة الرمل بطريقة تجعل المتلقي يجول ببصره في أنحاء اللوحة ليكتشف في كل مرة شكلا جديدا لم ينتبه إليه من قبل و بتتبع الخطوط اللامتناهية لمدة قد تطول دون الشعور بالملل، و زخرفة فريدة من نوعها لا نجدها في أعمال فنية أخرى لا تقليدية ولا معاصرة .

لوحات فنية بلمسة معاصرة للفنان عزيز عياشين تجسد مفهوم الانزياح

لم تعد تعد المرأة الجزائرية جسدا يسترق النظر إليه في اللوحات الفنانين أو حضورا حسيا و ثوبا تراثيا أو رمزا اصطلاحيا بل أصبحت كما كان مقدر لها البروز كفنانة، عرفها الجمهور بحضور مؤكد، فقد برزت إلى الوجود فنانات أمثال باية محي الدين، عائشة حداد، سهيلة بلحبار، زينة عمور، داود جوزي، و غيرهنّ كثيرات، فكانت مرآة للتحدي و إثبات للذات، لتُقدّم إبداع مُنصِف مثل أنامل الفنانة التشكيلية الجزائرية أنيسة بركان[22]، التي صورت مشاهد عن خلق الكون في لوحاتها، التي تحمل الكثير من الرموز الرياضية والهندسية، عبر أسماء لوحات ''الكون'' و ''ق'' و ''توازن'' و في لوحة أخرى بعنوان ''أركان'' حيث تتطرق الفنانة إلى أركان الإسلام الخمسة من خلال أشكال هندسية.

ابداع الفنانة التشكيلية الجزائرية أنيسة بركان

كما لها لوحات أخرى على غرار ''حروف'' و ''العدد الذهبي'' تصور تطور الكتابة و المعرفة و التصنيع، إضافة إلى آيات قرآنية بالخط العربي الأصيل و رموز متنوعة بحيث يتجلى ذلك عبر لوحاتها التي تعكس تصويرا فلكيا متناسق للكون، حيث تؤكد هذه الفنانة أنّ هذه اللّوحات هي[23] "تذكير بالنصوص القرآنية المقدسة وبرمزيتها الرياضية"، وتوضح أنيسة بركان، أنّها ركزت في أبحاثها حول العلوم والرموز الرياضية التي يزخر بها النص القرآني، وبهذا الخصوص تقول: "أرجو أن تثير هذه التشكيلة التساؤلات وتقترح الأجوبة للكثير من الأشخاص عبر العالم، بخاصة أولئك الذين ليس لديهم عن هذا الدين سوى نظرة الخوف، مع أنّ الإسلام هو خيرٌ للإنسانية جمعاء".

كذلك من الفنانين اللذين يمثلون مشهدية الفن المعاصر محجوب بن بلة[24]"يكنّى باسم رسام الجمل الهذيانية، تمّرد على الحروفية ليدحرها بإيقاعاته لأكثر من أربعين سنة و من أمثلة أعماله عكس الشمال الذي غطى فيه الفنان مسافة 12 كلم من طريق باريس روباي عام 1986 أو عمله الذي عرض على مساحة أربعة آلاف متر مربع في ملعب باسيمبوبسا و باولو البرازيلية عام 1999 وكذلك ديكور محطة مترو كولبير بمدينة غرونوبل عام2000، ([25]) وكل ما فعله يمكن أن يدخل ضمن مسعى الرسام الذي ألّف موسيقى بصرية ذات مسعى من أهم أهداف المغامرة التي خاضها الفن الحديث في محاولته التحرر من قيود وشروط المفهوم التقليدي للرسم.

من الفنانين العرب كذلك الخطاطة الموصلية جنة عدنان أحمد عزت[26]، شقت طريقها بإرادة لا تلين لتخرج من بين أناملها و بكلتا يديها اليمنى و اليسرى في آن واحد وبنفس الكفاءة، لوحات مذهلة ليست كبقية اللوحات، أدهشت المختصين وعشاق الخط العربي في أرجاء المعمورة الخطاطة العراقية جنة عدنان عزت تتلمذت على يد الخطاط العراقي المعروف يوسف ذنون في مدينة الموصل، ثمّ انتقلت لدراسة فن الخط العربي، لتصل مرحلة الاختصاص بإشراف أكبر أساتذة الخط العربي، حامد الآمدي في تركيا، وعميد الخط العربي سيد إبراهيم في مصر...و تحصلت على إجازتين في الخط العربي، منها سنة 1975، وهي في العاشرة من عمرها، فكانت بذلك أصغر خطاطة مجازة في العالم.

خصت الفنانة كل قطر عربي بلوحة عبارة عن آية تحاكي حال أو رمز البلد فمثلا خطت في خريطة :

- العراق :"رب إني مسني الضر و أنت أرحم الراحمين".
- فلسطين :"ربنا أفرغ علينا صبرا و ثبت أقدامنا و انصرنا على القوم الكافرين"
- اليمن : " لقد كان لكم في سبأ آية ".
- الجزائر :"و أشرقت الأرض بنور ربها و جيء بالنبيين و الشهداء".
- تونس : "و زيتونا و نخلا و فاكهة " .

جمالية الانزياح في اللوحة التشكيلية بين الالتزام وحرية الإبداع

هي عيّنات لبعض الفنانين من خلال لوحات و إسهامات بدأت تظهر فيها اللوحة التشكيلية العصرية بلا شك كأثر إبداعي تراكمي، و كجرأة نحو مفهوم الانزياح، ارتبطت كلها بالقيم و عادات المجتمع و حافظت على خصوصياته، و ليس الهدف من ذكر تلك أسماء التشهير أو إقصاء آخرين، بل هي عينة لتثقيف القارئ و توسيع ثقافة الفرد بواسطة هاته الأمثلة، و زيادة القائمة بتشجيع الفنانين الذين يحفرون أسماؤهم في الصف الأوّل على مقاعد الشهرة في المجتمع، سواء في مجال الأدب والشعر أو الفن، و التأثير على المتلقي بلوحات فنية تشكيلية جزائرية.

يصطدم المتذوق والناقد أيضا مع تلك الانزياحات، وتصبح فيما بعد، محط بحث وأسئلة وجودية، لها مرجعية وإثبات للذات على مستوى الممارسة والتأويل، وفي مساءلة الفنانين و المجتمع فيما بينهم، تحت وطأة الضغوط الاجتماعية والتقاليد السائدة، و في تعبيرهم عبر لوحاتهم، فجاء الفن التزاما بتاريخ البلد و بقيم ومبادئ و أعراف جماعتهم التي ينتمون إليها، فبالفن عرف الإنسان الحضارات، و به شكّل أسلحته الأولى التي استخدمها في الصيد" حيث استطاع منذ آلاف السنين أن يجرد فرع الشجرة ليحوله إلى عصا يدافع بها عن نفسه و أن ينحت قطعة من الصخر حتى يتمكن من القبض عليها بإحكام و يقاتل أعداءه[27] "، وبه أيضا ارتبط بالدين ارتباطا وثيقا بإنشاء المساجد و الكنائس و المعابد، حيث يقول أرنست فيشر في كتابه ضرورة الفن: "إذا لم نطبق علم الاجتماع على الفنون، وإذ ا لم نبحث الأسباب الاجتماعية الكامنة وراء موضوعاتها وأشكالها ومضمونها وهي متغيرة باستمرار، فسنجد أنفسنا بعيدين تماماً عن الواقع، و مهما يبلغ من ذكاء تحليل كهذا، ومهما يبلغ من قدرة صاحبه على رؤية التفاصيل و المشكلات الخاصة، فإن ذلك التحليل لن يستقيم على قدميه ما لم يعترف بأن المضمون – أي العنصر الاجتماعي في نهاية **الأمر - هو العامل الحاسم في الفن وهو الذي** يحدد **الأسلوب**[28]".

من هنا يتضح لنا أهمية العلاقة التي تحكم الفنان بمجتمعه بحيث أصبح هذا الفن شاهداً حياً على مظهر من مظاهر الحضارة الإسلاميّة، ووجهاً من أوجه التراث الشعبي العربي **و الأمازيغي**، بقيمه الجماليّة التعبيريّة **و التفانّية، متحولاً** بذلك، إلى فن بصري رفيع .

عالج **الفنان الجزائري** موضوعات جديدة معاصرة، إنما بنفس الأسلوب والصياغة وقوة التشكيل والتعبير والإدهاش، ليس بمعنى أنه يرفض القيم الجمالية في الفن و إنما يجعل الأولوية للأخ**لاق على حساب الجمال، و قد وصل الحال** مع الفيلسوف والروائي تولستوي و أفلاطون أن يجعلوا "من الفن ملائمة مع الأخلاق و أن يدعو إلى المحبة والخير والسلام، لذا يجب أن يقلع الشعراء عن وصف الأبطال وهم يتصارعون و منظر الدماء في المعارك ، إن مثل هذا **الشعر، يعلم الأطفال العداء والبغضاء بينما الصدق تعلمهم المحبة**"[29]، **فأفلاطون لا يسمح** بالشعر **الذي يروج**

للشرّ و ينشر الرذيلة و يساعد على الانحراف، و مادام الفن يؤثر في نفسية الأفراد و بنيات المجتمع عليه أن يدعوا للفضيلة، التي تخدم أغراض الأخلاق.

في زمن يدعونا إلى المقارنة مع مستويات دول أخرى تَفَوَّقَتْ علّينا في التأطير و التنظيم، و تجعلنا نطالب كحد أدنى إلى مراجعة بعض الأساليب الفكرية، و تأكيد بصمة الفنان في إقرار و ثبوت وجود الانزياح في الفن التشكيلي الجزائري حتى نعرف بالفن كوسيلة تعبيرية حضارية، تسجل بوعي ثقافة شعب بكامله، ومدى ما وصل إليه من خبرات وتجارب في شتى جوانب حياته، محافظة على هاته التجارب التي تؤكد أن النزعة الأخلاقية في الفن و لِمَا لها من تأثير في سلوك الناس، " يا أيها الفنانون إذا كنتم حريصون على خلود آثاركم ، ننصحكم بمعالجة المواضيع الشهمة فكل ما يبشر الناس بانحلال الأخلاق، مصيره الزوال والاندثار مهما كان الأثر مُوَفّقاً و رائعاً[30]"، و كذلك هو الحال مع شوبنهاور الذي يوازي بين الأخلاق والجمال " من خلال التمييز بين الإنسان الطيب و الإنسان الشرير، فالفن عند الإنسان الطيب هو مُنطَلَق يستطيع أن يبلغ القداسة لكننا نقول أنه في الحقيقة وجود أشياء كثيرة تجمع بين الفن والأخلاق، لهو أمر صحيح و لقاؤهما يجري عند بوابات المدينة، لا في برجها العالي، في قلوب الناس لا في مزار بوذا، و في ساحة الحياة لا في صحاري السافانا*[31]".

الخاتمة

استطاع الفنان الجزائري أن يدفع الجمهور الجزائري إلى الفضيلة، رغم سلطة وسيطرة ظاهرة الاستشراق في الفن، والتي تقودنا إلى طرح عدّة تساؤلات في كيفية تناوله الأسئلة الإبداعية، و التي مثلت آنذاك إشكالية علاقته بثقافته الفنية الغربية، و بين ما يناسب مجتمعه، بالرغم من تأثره المتزايد بالمدارس الفنية لعصر النهضة،" و هذا ما جسّده الاستعمار الفرنسي أثناء احتلاله للجزائر، حيث بذل المستشرقون كلّ مجهوداتهم الفكرية، وقدّموا له كل ما يحتاج إليه في سبيل التغلغل وسط المجتمع الجزائري، والتحكم فيه والسيطرة عليه، فاتّجه إلى الفرد والجماعة والأخلاق والآداب والفنون والعلوم والآثار والدين، والإسراع في تحضير وتهيئة هذا المجتمع من أجل إدخاله وإدماجه في بوتقة الدّولة الفرنسيّة ثقافيّا وحضاريّا واجتماعيّا. [32]"، إلا أن الفنان التشكيلي أستطاع أن يكون لنفسه طابع خاص ليس بتوجيه المواعظ و النصائح إنما بالفرشاة التي أنارت الوعي، و من هاته السطور " نحن نتمنى أن يعي الكاتب أو الفنان بوضوح أبعاد المستقبل حتى تكتسب أعماله دلالة نضالية، إن القيمة الأخلاقية للفن لا تتمثل في إسداء النصائح أو توجيه المواعظ بل في إيقاظ وعينا[33]".

كان لحرية التعبير اثر واضح في إنتاج العمل الفني الجزائري ولم لم يكن التزام الفنان الجزائري للفن مفروضا عليه، بل كان نابع عن قناعته بالقيمة التاريخية و موروثه الحضاري، أين استطاع أن يحافظ عليها من تلقاء نفسه، و حينما دَعَت الضرورة إلى التطور وتغيير الأساليب الفنية و التأقلم مع ظهور مفاهيم الحداثة، فقد صاغ أشكالاً

مختلفة من حيث أغراضها، تجاوز حدود المبالغة في إدانة أخلاقية الفن، و لا المبالغة في تقدير القيمة الجمالية بل الأخلاق والفن و الجمال، كلهم في خدمة المجتمع و تنويره إلى الطريق الصحيح.

التهميش

1الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، موسى سامح ربابعة، دارالكندي للنشر والتوزيع-الأردن،ط1 .2003.ص46 و47

2الانزياح الدلالي في الألفاظ العربية معجم العين نموذج، صونيا لوصيف مذكرة ماستر، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، ص 29

3الانزياح ،أبو عمر وعثمان بن بحر الجاحظ،عبدا لسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي م المدني ج1، ط7، 1998.

4إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد،يوسف وغليسي، ص219

5الترجمة والمصطلح السعيد بوطاجين، منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1 ، ص 135 ، 2009

6 الأسلوب والأسلوبية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب القاهرة 1993 ط 3 ص 103

7Jean Dubois et autres : Larousse, PUF, 1973, P115

8الانزياح بين أحادية المفهوم وتعدد المصطلح، د/نور بوحلاسة: مجلة مقاليد ع 2012/12/02 قسنطينة ،الجزائر

9الانزياح وتعدد المصطلح: احمد محمد ويس،عالم الفكر، الكويت،م 25 العدد3 ، ص 65

10الأسلوبية والأسلوب، المسدي عبد السلام، ط4، دار سعاد الصباح القاهرة 1993 ص 100-101

11 الانزياح منظور الدراسات الأسلوبية، مرجع سابق ص 156

12Impressionnisme: هي مدرسة أدبية و فنية تشكيلية، ظهرت في أواخر ق 19 بباريس، وهي مذهب يعتبر الإحساس، والانطباع الشخصي هو الأساس في التعبير الفني والأدبي،لا المفهوم العقلاني للأمور، ويرجع ذلك إلى أن أي عمل فني بحث لابد أن يمر بنفسية الفنان أولاً، وعملية المرور هذه هي التي توحي بالانطباع أو التأثير الذي يدفع الفنان إلى التعبير عنه، إذ يتخذ الناقد من النص الأدبي مناسبة للحديث عن ذاته وأفكاره الخاصة وما يتداعى في ذهنه من مشاعر وذكريات، و من زعماء النقد الانطباعي الغربي : سانتبريف/Ch.A.Sainte -Breuve (1804-1896) الذي كان يكتب النقد بلغة الشعراء، وأناطول فرانس / A. France (1844-1924) الذي اتخذ من النقد وسيلة لسرد مغامراته، ويرى أن قيمة أي عمل أدبي تكمن في نوعية الانطباعات التي يتركها في نفس القارئ وهذا الانطباع هو الدليل الوحيد على الوجود الحي للعمل الأدبي، و في الوطن العربي وقع صراع حاد بين محمد مندور و زكي نجيب محمود، سنة 1948 ،كان موضوعه : هل يقوم النقد على "الذوق" أو على "العلم"؟.

13 الانزياح و تمثلاته في الرسم الأوروبي الحديث، دلال حمزة محمد الطائي ط1، الدار المنهجية عمان ص18و 19 بتصرف.

14 زهير الصاحب، قراءات وأفكار في الفنون التشكيلية، دار النشر : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع،2012

15 مطالعات في الفن التشكيلي العالمي أعلام ومدارس وتيارات فنية صدقي إسماعيل: الهيئة العامة السورية للكتاب 2011العدد 102 -ص 184

16 رعد مطر مجيد، دور سيزان في إرساء قواعد الفن الحديث، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية /المجلد23/ العدد 3: 2015

17 د.ا.م بلاسم محمد، الانزياح والعودة في اللوحة التشكيلية صدمة التاريخ، مقال غير مطبوع و غير منشور ص 4.

18 الانزياح و تمثلاته في الرسم الأوروبي الحديث ، مصدر سابق ص281

19 كتاب ما هو الفن-ليف تولستوي – ترجمة د. محمد عبدو النجاري –دار الحصاد للنشر والتوزيع –الطبعة 1991 ص 16-17

20 ولد الفنان هاشمي عامر في 20 نوفمبر 1959 بحجوط ولاية تيبازة، أقام معارض دولية ووطنية وتحصل على عدة جوائز بمتحف الجزائر ووهران، ونشط عدة حصص على مستوى الإذاعة والتلفزيون والراديو، ودون اسمه في كتب و مذكرات جامعية وقواميس و مجلات.

21من مواليد 10/6/ 1979م ببلدية الكرمية ولاية الشلف متخرج من مدرسة الفنون الجميلة بمستغانم والذي يشتغل في مركز التكوين المهني والتمهين بالشلف و مدرس بالجامعة في مادة الهندسة المعمارية تحصل على عدة جوائز و شارك في عدة معارض ومهرجانات وطنية ودولية

22 ولدت أنيسة بركان سنة 1966 بالجزائر العاصمة و هي متخرجة من مدرسة الفنون الجميلة، و قد سبق لها و أن أقامت العديد من المعارض بالجزائر العاصمة و ألمانيا و فرنسا.

23 موقع جريدة الوطن بعمان، مقال بعنوان : تشكيلية جزائرية تستوحي أعمالها الفنية من القرآن الكريم، نشر في 16ماي2017، تاريخ الولوج إلى الموقع الخميس 31 مايو 2018 م http://alwatan.com/details/193758 .

24 هو ابن أخ احمد بن بلة رحمه الله، الرئيس السابق و التاريخي و البطل الجزائري.

25 فاروق يوسف، محجوب بن بلة رسام الجمل الهذيانية، مجلة العرب العدد 10 ركن وجوه 2016/10/23 .

26 من مواليد 1965 تعيش حالياً في نيوزيلندا، وهي اختصاص في خط الطغراء و هو مزيج بين خطي الديواني والإجازة، وبرعت كذلك في خط الثلث، وجلي الثلث، وهي عضو في جمعية الخطاطين العراقيين وعضو في جمعية الخطاطين الأردنيين، وعضو في جمعية الخطاطين المصريين.

27 مختار عطار، آفاق الفن التشكيلي على مشارف القرن الواحد والعشرون، دار الشروق، مصر الطبعة الأولى 200، ص05.

28 آرنست فيشر، ترجمة أسعد حليم ، ضرورة الفن، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1986، ص200.

29 أفلاطون الجمهورية، فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1984، ص258.

30 ريشار أندريه، ترجمة هنري زغيب ، النقد الجمالي ، منشورات عويدات بيروت، 1974.،ص 74

* هي كلمة ذات أصل أسباني(Sabana) ، نوع من أنواع السهول الأرضية تمتاز بعشبها الأصفر المائل للبني، ويسود فيها المناخ المداري، وهي تقع على شمال أو جنوب خط الاستواء، من غينيا...، وأستراليا...، ويفضل الكثير هذه المناطق للصيد والسفاري.

31 أحمد شيال ، الفن بين المغالطة الأخلاقية و الجمالية ،دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر،كلية الآداب ،قسم الفلسفة الجامعة المستنصرية، ص 4

32 خالدي محمّد، المستشرقين وأثرهم الفكريّ والفنّي في الجزائر، جامعة تلمسان-الجزائر ص 2

33 أحمد شيال ، مصدر سابق.